ظاهرة(الازدواج اللغويّ) وأثرها في النسيج الاجتماعيّ

د.نعمة دهش فرحان الطائيّ

كلية التربية/ابن رشد– جامعة بغداد

الملخص

للتطور الفكريّ انعكاساته على النسيج الاجتماعيّ، وبخاصة في حقل اللسانيات، بما أسهم به في الكشف عن كثيرٍ من الظواهر المشتركة بين اللغة والمجتمع، والانتقال بالدراسات اللسانية في مجال بحثها في اللغة ذاتها إلى مجالات جديدة، فتحت الأفاق أمام اكتشاف ظواهر لسانية طارئة في اللغة، وقد أدى تطور البحث اللسانيّ إلى تطور جملة من العلوم لها صلة بالظاهرة اللغوية، وعلى الرغم من سيطرة بعض العلوم على بعضها الآخر فلسفةً ومنهجًا، بقيت اللسانيات تحظى باستقلاليتها، محافظةً على أصولها، من غير أن تحدث قطيعة معرفية معها. وكان من نتاج هذا التطور ظهور علم اللغة الاجتماعيّ، الذي يُعدُّ فرعاً مهماً من فروع علم اللغة العام أو علم اللسانيات، فهو يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع؛ لأنَّهُ ينظم كلَّ جوانبِ بنيةِ اللغةِ وطرائقِ استعمالها، التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية، وليس المقصود بهذا العلم أنَّهُ تركيبة أو توليفة من علمي اللغة والاجتماع، أو أنَّهُ مزيجٌ منهما أو تجمع لقضاياهما ومسائلهما، وإنَّما هو الذي يبحث عن الكيفية التي تتفاعل بها اللغة مع المجتمع، فهو ينظر في التغييرات التي تطرأ على بنية اللغة استجابة لوظائفها الاجتماعيّة المختلفة، مع بيان هذه الوظائف وتحديدها .

أنَّ جميع الظواهر اللغويّة الاجتماعيّة تحدث بالضرورة تغيرًا لغويًا في لغة المجتمع؛ لأنَّ هذا التغيّر اللغويّ (التطور) هو ضرب من ضروب التغير في التقاليد والأعراف الاجتماعيّة، فمدار التّطوّر اللغويّ في مجتمع ما هو قبول المجتمع وتداولهُ إياهُ، لذا تُعدُّ العوامل الاجتماعيّة وأثرها في خصائص اللغة وتطوّرها من أبرز مباحث علم اللغة الاجتماعيّ، فاللغة والمجتمع وجهان لعملة واحدة في علم اللغة الاجتماعيّ، فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به .

ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث، الذي حاول فيه الباحث الكشف عن مضامين ظاهرة مهمة من ظواهر هذا العلم، سبقه إليها كثيرٌ من الباحثين، أراد أن يزيد في البنيان لبنةً جديدة، فجاء بحثه موسومًا بـ(ظاهرة الازدواج اللغويّ وأثرها في النسيج الاجتماعيّ)، مقسمًا إياهُ على ثلاثة مباحث؛ كان المبحث الأول منها موسومًا بـ(التعريف بظاهرة الازدواج اللغويّ)، مقسمٌ على قسمين؛ الأول منهما خُصِصَّ لـ(لازدواج اللغويّ مفهومًا)، في حين خُصِصَّ الآخر لـ(لازدواج اللغويّ في المدوّنات العربية القديمة)، أما المبحث الثاني؛ فخُصِصَّ لـ(عوامل نشوء الازدواج اللغويّ)، وعلى قسمين أيضًا، خُصِصَّ الأول منهما لـ(العوامل الاجتماعية)، في حين خُصِصَّ الآخر لـ(لعوامل الجغرافية)،وأشار الباحث لبقية العوامل أجمالًا لدراسته إياها ضمنًا في القسمين المذكورين آنفًا. وجاء المبحث الثالث موسومًا بـ(أشكال الازدواج اللغويّ وآثاره)، وعلى قسمين أيضًا؛ خُصِصَّ الأول منهما لـ(أشكال الازدواج اللغويّ)، في حين خُصِصَّ الآخر لـ(آثار الازدواج اللغويّ) .وختم البحث بقائمة المصادر والمراجع .

المبحث الأول / التعريف بظاهرة (الازدواج اللغويّ) :

أولًا – الازدواج اللغويّ مفهومًا :

ظهر مصطلح الازدواج اللغويّ (Diglossie) في اللسانيات عام ١٩٥٩م، حين استعمله اللسانيّ الأمريكي شارل فرجسون (charles fergason) وهو مصطلح إغريقي، وتعني الازدواجية اللغوية عند شارل مقابلة بين ضربين من ضروب اللغة، ترتفع منزلة إحداهما، وتُعدُّ المعيار الذي تكتب به لغة الأدب، ولكن يبقى التحدث بها عند الأقليّة المتخصصين، وتحط منزلة الأُخرى التي يتحدث بها الأكثريّة.

كان ذلك في مقال نشره في مجلة Word ، وقد تعرض في مقاله لعدة لغات تتمثل فيها ظاهرة الازدواج، ومنها اللغة العربية، ووضع تسعة معايير لازدواجية اللغات، هي :(الوظيفة، والمقام، والتراث الأدبي، والاكتساب، والتقييس، والثبات، والقواعد، والمعجم، والفونولوجيا) ويعني وجود ضربين من الاستعمال اللغوي عند جماعة لغوية واحدة أحدهما، فصيح و الآخر عامي، ويختصُّ كلٌّ منهما بوظيفة اجتماعية لا يؤديها الآخر .

وهذه الازدواجية هي في الأساس مقترحات لسانيّ أمريكيّ آخر، وهو جوشوا فيشمان (Josha fishman) استنتج من طريقها أنَّ الازدواجية قد تشمل ثلاثة أضرب من ضروب اللغة ١.

ويُعدُّ وليام مارسيه (١٩٣٠-١٩٣١)أول من استعمل مصطلح الازدواجية اللغوية في الأدبيات اللغوية الفرنسية، كما كان أول لغوي تطرق في ثلاث مقالات إلى ازدواجية اللغة العربية (الفصحى و الدارجة) في شمال إفريقيا، و ذلك بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر. وقد عرف الازدواجية بأنها التوارد بين لغة مكتوبة و لغة شفهية. يقول: " تبدو لنا اللغة العربية في شكلين مختلفين – :لغة أدبية، و هي المسماة بالعربية المكتوبة أو القياسية أو الكلاسيكية، والتي كانت اللغة المكتوبة الوحيدة في الماضي، والتي تكتب بها حاليا الأعمال الأدبية و العلمية و المقالات الصحفية والوثائق القانونية والرسائل الخاصة... و لكن لا يتحدث بها في كل المقامات – .لغة شفهية، و التي لم تكتب أبدا..حيث تشكل منذ وقت طويل لغة المحادثات في كل الأماكن العامة ".يقدم "فرجسون" في مقالته الشهيرة المنشورة سنة ١٩٥٩ و المعنونة بـ "الديجلوسيا " أو الازدواج اللغويّ حديثًا مفصلًا عن مفهوم الازدواجية اللغوية، مفتتحًا إياها بتعريف دقيق لها، واضعًا مجموعة من المعايير التي تحددها وتفرق بين النوعيتين المشكلتين لها في بلد ما .يقول: " في عدة مجموعات لغوية هناك نوعيتان أو أكثر لنفس اللغة، يستعملها المتكلمون تحت شرو ط مختلفة كما هو الحال في إيطاليا و إيران، حيث يوجد عدد من المتكلمين الذين يستعملون لهجتهم المحلية في البيت و مع الأصدقاء، لكنهم يستعملون اللغة المعيارية في التواصل مع المتكلمين من لهجات أخرى، أو في المناسبات العامة " ٢

وقد تنبه" فرجسون" إلى أنَّ هذه الظاهرة منتشرة جدًا، لكنها تفتقر إلى الكفاية الوصفية، لذلك اختار أربع عينات لغوية تتميز كلها بازدواجية لغوية، وهي : الدول العربية (لاسيما مصر)، ثم اليونان وهايتي، و أخيرًا سويسرا. نستنتج من خلال ملاحظات أولية أن هذه الظاهرة لا توجد فقط في المجتمعات العربية، بل تمتد إلى ثقافات أخرى، بل يمكن الجزم بكونيتها، وهذا ما ذهب إليه اللسانيّ الشهير "هارولد شيفمان"– ١٩٩٩– إذ يرى أنَّ الازدواجية أن وردت في عدة سياقات غير غربية، فإنها مع ذلك ظاهرة لا تقتصر على بعض ثقافات العالم الثالث البدائية، بل تشمل عددًا من اللغات الموجودة في مناطق متنوعة من العالم، بما في ذلك أوربا الغربية ٣ .

ويذهب " أندريه مارتني" صاحب نظرية النحو الوظيفيّ إلى أبعد من ذلك، حين يقرر أن الازدواجية توجد في كل المجتمعات، حتى تلكم التي نعدّها مجتمعات أحادية اللغة، إذ يمكن القول بأن هناك دائما درجة من الازدواجية، حتى في المجتمعات التي تعتبر مجتمعات أحادية اللغة، لأنه ليس هناك تطابق بين الاستعمال اليومي و الشكل الرسميّ، ومع ذلك، فلن نتحدث عن الازدواجية إلّا عندما يكون المتكلمون واعين بهذه المثنوية، وعندما يوجد على الأقل بعض الأشخاص الذين يصارعون من أجل التقليل من حدتها . ٤

ولتقديم أدلة على ذلك، نسوق التعريف الذي قدمته العديد من المعجمات الغربية لمعنى كلمة "اللهجة" والتي يلخصها تعريف موسوعة " ويكيبيديا " العالمية : اللهجة هي منوعة لغوية منحدرة من اللغة، و تتميز باختلافات صوتية و صرفية و تركيبية و معجمية عن اللغة الأصل، و لكل لغة لهجاتها من دون استثناء ".٥

ويعي الازدواج اللغويّ بأنَّه استعمال الفرد لغة في خطابه العادي وحياته اليومية تختلف عن اللغة التي يستعملها في الكتابة، وهذا الاختلاف في الجوانب الصوتية والمعجمية والدلالية، فالمتحدث بالعربية يلزم نفسه بالمحافظة على قواعدها في أثناء الكتابة، ولكن يتحرر عندما يتكلم بها في خطابه العادي ضمن شؤون الحياة ٦. ويُعدُّ المعيار الأول من أكثر المعايير أهمية، إذ يوجد في اللغة العربية شكلان لغويان، لكلٍّ منهما وظيفة اجتماعية محددة، فاللغة الفصحى (اللهجة العليا) تستعمل في مواقف لا تستعمل فيها اللهجة الدنيا أي الأشكال العامية المختلفة ... ومن المشترط لحدوث الازدواجية اللغوية لديه أن تكون اللهجة العليا لا تستخدم للمحادثة من قبل أي قطاع من المجتمع وهذا النقطة أساسية لتمييز ازدواجية اللغة عن اللهجة النموذجية ذات اللهجات الإقليمية .

إنَّ عدم التمييز بين مستوى اللغة الفصحى القديمة والمستوى المتطور عنه وهو اللغة العربية الفصيحة المعاصرة قد يمثل سبباً في اضطراب التصنيف الازدواجيّ للغة العربية، أو إنَّ تطور اللغة العربية الفصيحة المعاصرة وانتشارها كان النتيجة التي أفرزها الوضع الازدواجيّ بين اللغة الفصحى واللهجات المحلية المحكية

بيد أننا لو سلمنا بذلك لا بُدَّ من أخذ معايير أخرى تتعلق بالحدود السياسية بين البلدان العربية، التي أدت إلى نشوء نتيجة أخرى مشوهة للازدواج هي اللغة العامية الوطنية، ولكن فرجسون يرى أنَّ اللهجة العليا لا يمكن أن تصبح هي اللغة النموذجية إلا في حالتين :

(١) إذا كانت اللهجة العليا هي اللغة النموذجية في بعض المجتمعات الأخرى.

(٢) إذا اندمج مجتمع ازدواجية اللغة مع ذلك المجتمع الآخر .

ونحن نرى أنَّ اللغة العربية الفصحى لن تكون لغة قومية مستعملة في المحادثة لكن اللغة العربية الفصيحة المعاصرة بدأت تسير بفعل الضغوط التي ذكرها فرجسون نفسه، ومنها شيوع التعليم واتساع الاتصال؛ لأن تكون لغة نموذجية مستعملة في الحديث والكتابة .

ومن المقالات المهمة في قضية الازدواج مقال جوشوا فيشمن في عام ١٩٦٧ م ، ويتميز عن مقال فرجسون بسماحه بوجود عدة ازدواجات بين مستوى اللهجة العليا ومستوى اللهجة الدنيا حتى أنه يمكن أن يدخل في مصطلح الازدواج أي درجة من الاختلاف اللغوي ، وهذا لا يتوافق مع فرجسون الذي يخرج وجود لغة نموذجية مستعملة ولهجات متعددة لها من مفهوم الازدواج ٧.

ويرى رالف فاسولد أنّ ازدواجية اللغة لا تنتهي أبدًا وهي من طبيعة الإنسان، ولأجل ذلك يؤيد عدم اقتصار الازدواج على شكلين لغويين فقط مع سماحه ببقاء مصطلح (Diglossia) لتأريخه الطويل كما يقول، ويقترح تعريفًا للازدواجية اللغوية الموسعة هو أنها : " قصر استخدام الأجزاء اللغوية العليا في المجتمع، التي لا يتعلمها الفرد أولًا، ولكنه يتعلمها لاحقًا وبطريقة شعورية ، ويتم هذا التعليم عن طريق التعليم الرسميّ لأوضاع يدركها الفرد على أنها أكثر رسمية وتحفظًا، وقصر استخدام الأجزاء الدنيا، التي يتعلمها الفرد أولًا وبطريقة لاشعورية مهما كانت درجة الترابط بين هذه الأجزاء العليا والأجزاء الدنيا بدءًا من الاختلاف في الأسلوب، وانتهاءً بالاختلاف التام كما في اللغات المنفصلة، على الأوضاع التي يعتبرها الفرد أقل رسمية وأكثر ألفة " ٨.

ويذهب محمد الأوراغيّ إلى خلاف ذلك، إذ يرى أنَّ الازدواج حالة فردية وليست وضعية اجتماعية؛ إذ تنحصر في قليلًا من الأفراد، ولا تستغرق كلَّ المجتمع، وهو إما ازدواج مبكّر؛ ينتج عن تنشئة الأطفال، بدءًا على تعلم اللغتين (ل١، ل٢) معًا وبالكلفة نفسها، في الوقت والجهد، وإما ازدواج متأخّر؛ ينتج غالبًا عن أرجاء تعليم اللغة (ل٢) إلى أنْ تستقر اللغة (ل١) في حدود السنة الخامسة من عمر الطفل، ووضع أربعة معايير لتسمية الازدواج اللغويّ ٩ .

وربما يعود تشدد الأوراغيّ في تسمية الازدواج اللغويّ إلى أنَّهُ تابع اللسانيون اللذين أطلقوا الأزواج اللغويّ على وضعية لسانية تتميز بأن يتواجد في البلد الواحد لغتان من نمطين مختلفين؛ كالعربية والإسبانية في شمال المغرب وجنوبه ،والعربية والفرنسية في الوسط، وهما مع ذلك الاختلاف تستعملان بالطلاقة نفسها نسبيًا؛ للتعبير عن التجربة الشخصية للناطقين بتينكم اللغتين١٠ .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ عددًا من الباحثين يذهبون إلى التفريق بين الثنائية اللغوية(التفرع اللغويّ) والازدواج اللغويّ؛ إذ يرون أنَّ الازدواجية لا تنشأ إلّا من لغتين مختلفتين على وفق ما أسلفنا آنفًا، أما الوضع بين اللغة العربية الفصيحة المعاصرة والعامية فهو عندهم ثنائية، أو ما يسمى بظاهرة (التفرع اللغويّ) ويميل إلى هذا الرأي بعض اللسانيين المحدثين من المغرب العربيّ تأثراً بترجمات مفاهيم علم اللغة في الفرنسية١١. وفاتهم أنَّ مصطلح (الازدواج اللغويّ) قد تطور في مفهومه، فالمقصود به في الدراسات اللسانية الحديثة هو تنويع الاستعمالات اللغوية من لغتين مختلفتين في مجتمع واحد، كذلك أيضًا يشمل كلَّ وضع يقوم فيه مجتمع لغويّ واحد بمعارضة مختلف ألوان لغته، واصفًا بعضها بأنَّهُ عامي دارج ... وبعضها الآخر بأنه كلاسيكي/مأثور، ويؤيد الباحث هذا الرأي، لذا أطلقنا مصطلح (الازدواج اللغويّ) على كلٍّ من: (الازدواج اللغويّ) و (الازدواج اللهجيّ) في هذهِ الدراسة؛ ليكون هذا المصطلح جامعًا لمستويات متفاوتة ومتعددة استعمالًا، قد تشترك فيها الازدواجية والثنائية مع الاستعمالات الاصطلاحية وأوضاع ثقافية واجتماعية غير لغوية .

هنا لا بُدَّ من التمييز بين درجات الازدواج، فيكون هناك ازدواج طبيعيّ، وازدواج حاد غير طبيعيّ، وبينهما درجات مختلفة من الازدواجيات، إذ تُعدُّ هذه الظاهرة ظاهرة عالميّة، لكنها اكتسبت في المجتمع العربيّ الإسلاميّ سمة خاصة، تمثلت بشدّة حدّتها نظرًا لثبات أنظمة الفصحى من ناحية، وانطلاق العاميات من ناحية أُخرى، فضلًا عن عوامل سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة، لكنها كغيرها من اللغات تأثرت بمختلف المراحل التي واكبت المجتمع منذ فجر الإسلام، فامتداد استعمال اللغة العربيّة مع الفتوحات الإسلامية واكب تسرب تراكيب وأصوات ليست من أصل اللغة، فظهر النحو والصرف حفاظًا على اللغة من هذا الانحراف، وكان المرجع في ذلك القرآن الكريم والأدب العربيّ، اللذين لم يتأثرا بالوافد من الألفاظ والتراكيب الأعجميّة إلّا ما كان يقع في منفعة اللغة وعلى وفق الأقيسة العربيّة .

و نقصد بالازدواج اللغويّ(اللهجيّ) وجود مستويين للغة نفسها؛ أحدهما رفيع، والآخر وضيع، أو ما يسمى في الثقافة العربية باللسان الفصيح و اللسان العامي، و هو و ضع ظهر مند تقعيد اللغة العربية(لهجة قريش أو العربية الموحدة بحسب اختلاف الدارسين) . ومن أمثلته: قول الإمام علي (β) : " وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ... " ١٢ وأصل الكلمة (ناواه) مهموزة على لغة تميم، وقد ليّنها الإمام (β) لأجل القرينة السجعيّة، قيل ناوأتُ الرجل مُنْاوأةً ونِوَاءًا، ويقال في المثل: (إذا ناوأت الرجل فاصبر) وجذرها اللغويّ (ن و أ)، جاء في الكتاب العزيز: (لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) ١٣ .أي لتنُئُ العُصْبَة بثقلها، و (ناءَ) بوزن بَاعَ لغة أخرى في (نأي) أي بَعُدَ ١٤.

ويُعدُّ الإمام علي (β) أوّل من ليّن هذه اللفظة واستعملها في اللغة الفصحى، ومن ثم أصبح استعمالها شائعًا، وهذا من مرتكزات علم اللغة الحديث، الذي يهتم بالتغير اللغويّ على المستوى الاجتماعيّ، ويعود هذا التغير دائمًا إلى تجديد لفظيّ، يقبله المجتمع فيما بعد كظاهرة اجتماعيّة، وإلى جانب وجود تغيرات بدأت على مستوى الفرد ثم أصبحت على مستوى المجتمع، هناك تجديدات فرديّة ظلّت مرتبطةً بمجموعة أفراد، ولم تستسغْ اجتماعيًّا، فخرجت عن الدراسة في علم اللغة الحديث، وهذا ما نستشفه من قول الإمام علي(β) " ... وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدِي ..." ١٥، فعبارة :(حاش لله) بمعنى ما عاذ الله ، والأصل إثبات الألف (حاشا) ، وإنما أتبع أمير المؤمنين هنا المصحف الشريف، قال تعالى:(قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) ١٦ .

وفي موضع آخر نراه (β) يثبت الألف في غير موضعها : " ... لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ .. " ١٧. والأفصح في هذا الموضع (لا أبَ) ، كما قال الشاعر :

أبي الإسلامُ لا أب لي سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم ١٨.

وخلاصة القول أنَّهُ لا نستطيع في أي شكل من أشكال المجتمع أن نغير حدود اللغة، ولا طبيعتها ولا وظائفها من غير أن نسبب تغيرات أُخرى ربما تكون غير مقصودة، ذلك أنَّ اللغة وطيدة الصلة بأفكار الناس وأحاسيسهم وأعمالهم، وأنَّها أساسيّة جدًا، وعميقة الأثر في كلِّ السلوك الإنسانيّ، في حياة الإنسان فردًا، وفي حياته الاجتماعيّة، حتى أنَّ تغيرات كهذه التي تخلق ثورة لغوية لا بُدَّ أن تخلق ضعفًا وتوترًا وقلقًا اجتماعيًّا، واخـــــتلافات في الفكر والإحساس والعمل ١٩.

ثانيًا – ظاهرة (الازدواج اللغويّ)في المدوّنات العربية القديمة :

وجدت ظاهرة (الازدواج اللغويّ) قديمًا بصورة جلية في المدونات العراقية القديمة خلال المدة الزمنية المحصورة بين العصر الاكدي والعصر البابلي القديم، وأنَّ الدلائل على ذلك ظهور مصطلحات أكدية في اللغة السومرية ومصطلحات سومرية في اللغة الاكدية، فضلًا عن ذلك تأثر اللغة الاكدية باللغة السومرية قواعديًا، إذ استعمل الاكديون الفعل في نهاية الجملة وليس في بديتها كما هي الحال مع بقيت اللغات الجزرية الأخرى مثل اللغة الآرامية والعربية والعبرية، فهي الوحيدة التي اختلفت عن بقيت تلك اللغات، وكذلك العثور على النصوص الأدبية التي ظهرت خلال العصر البابليّ القديم، التي دونت باللغة الاكدية ولهجتيها الآشورية القديمة في الشمال والبابلية القديمة في الجنوب، فقد كانت معظم تلك المؤلفات هي عبارة عن استنساخ للموروث الحضاريّ السومريّ في الإطار العام ،

إنَّ ابرز نتاج ذلك التداخل اللغويّ هو ظهور ما يسمى بـ(المعجمات اللغوية)، وهي عبارة عن قوائم طويلة بالعلامات السومرية على شكل جداول احتوت على حقلين؛ الأول : حمل علامات باللغة السومرية يقابلها في الحقل الثاني: شروحاتها باللغة الاكدية، وقد عدت هذه الخطوة أولى محاولات الإنسان العراقيّ القديم في تنظيم المعجمات اللغوية ، ووضعت لتلك

المعجمات عناوين تمثلت بالعبارة الأولى التي بدأت بها . وهذا ما شاع استعماله عند العراقيين القدامى في تسمية نصوصهم الخاصة بالأدب والفن القصصيّ، فهناك مجموعة سميت بـ (آنا اتيش ana ittisu) ومعناها (حين الطلب)، وكان قسمٌ من تلك المعجمات استنسخت خلال العصر الآشوريّ الحديث إلى أنَّ أصولها تعود إلى العصر البابليّ القديم .

والى جانب تلك المعجمات نظم العراقيون القدامى أو بالأحرى الكتّاب منهم قوائم وجداول كثيرة، تضمنت أسماء الأشياء والمواد والمخلوقات مصنفة حسب ماهيتها، ذلك لمساعدة المبتدئين على معرفة تلك الأسماء وحفظها، وقد وردتنا نصوص متعددة تشير إلى اهتمام العراقيين القدماء .

ثم برزت ظاهرة (الازدواج اللغويّ)عند العرب ظاهرة اجتماعيّة قبل الإسلام، إلّا إنَّنا نلحظ ظاهرة الازدواج اللغويّ بنحوٍ واضحٍ جلّي في المجتمع الإسلاميّ حينما انفتح على الثقافات والمجتمعات المحيطة به؛ نتيجةً لحروب الفتوحات الإسلامية، ودخول الأعاجم في الدين الإسلاميّ، فاختلطت الألسن المختلفة باللسان العربيّ الفصيح، ونتيجةً لشيوع هذه الظاهرة، وتأثيرها في اللسان والأدب العربيّ؛ وضع الإمام علي (β) قواعد علوم اللغة العربيّة للحدِّ من انتشارها، إذ المثير علميًا – بهذا الصدد– أنَّ اللغة العربيّة تمكنت من استيعاب الفلسفة اليونانيّة والمحافظة عليها، بل التعليق عليها من غير أن تفقد بنيتها في الشكل والمضمون، وينطبق ذلك على نقل أدب الشعوب الشرقية كفارس والهند، ويعود سبب ذلك إلى أنّ اللغة العربية كانت لغة حضارة في تلك المرحلة، فاللغة التي هي أقوى غالبًا هي التي تستوعب أو تفرض نفسها على اللغات الضعيفة الأُخرى، ولا يعني ذلك أنَّ اللغة العربيّة لم تتعرض لنوع من الإفساد اللغويّ بفعل الجدل الذي ساد مختلف الفرق، التي أظهرت تأثرًا بالفلسفة اليونانيّة أو اعتراضًا على اللغة السائدة آنذاك في المجال الدينيّ بخاصة، وهو أمر أظهر تراجعًا في تطور اللغة العربيّة واستعمالاتها، ظهر جليًّا في مرحلة ما يُسمَّى (مرحلة الانحطاط)، فاللغة تنمو على قدر تطور أهلها في شتى المجالات، والعكس صحيح.

كان الجاحظ مثلًا ذا نظر عميق في رؤيته للغة وتنوعاتها تبعاً لتنوع بيئاتها وأهليها، وله إشارات متناثرة في كتبه: (الحيوان، والبيان والتّبيين، والبخلاء، ورسائله الأدبية)، فقد تحدث بحديث متناثر في أعماله عن لغة الفصحاء والبلغاء والأعراب والمولدين والنبطيين والخرسانيين والحكماء من فلاسفة ومتكلمين والعامة من سواد الناس، وتحدث عن السمات العامة للهجات ولغات تلك المجتمعات المذكورة آنفًا، ووقف وقفة الباحث المدقق الفاحص عند بعض الظواهر المُميّزة لهذه الفئة أو تلك، ولا سيما مجال الأصوات ومستويات النطق، محاولًا بذلك ربط البنية الصوتيّة بالبنيتين الاجتماعيّة والثّقافيّة، ومن كلماته في هذا المجال قوله : " وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة ، بالعربيّة المعروفة ، ويكون لفظه متخيرًا فاخرًا ومعناه شريفًا كريمًا، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنَّهُ نبطيٌّ ، وكذلك إذا تكلم الخرسانيُّ على هذه الصفة ، فإنَّك تعلم مع إعرابه ، وتخير ألفاظه في مخرج كلامه أنَّهُ خرسانيٌّ ، وكذلك إذا كان من كتاب الأهواز"٢٠ ، ويقول أيضاً : "النَّخَّاس يمتحن لسان الجارية إذا ظنَّ أنَّها روميّة وأهلها يزعمون أنَّها مولدة ، بأن تقول : (ناعمة) ، وتقول (شمس) ثلاث مرات متتالية" ٢١.

وينصرف الجاحظ في أماكن أُخر من كتابه لرصد عدد من السمات الصوتيّة (اللُّكْنَة) فيقول : "إنَّ صهيباً الروميّ يقول: إنَّك لهائن بالهاء عندما يريد قول : إنَّك لخائن بالخاء"٢٢.

وتناول ابن خلدون بالنظر العميق علاقة المجتمع، وطبيعة هذه العلاقة ومردودها البادي فيما نسمّيه بـ(التّنوع اللغويّ) أو بعبارة أدق محاولة الكشف عن مدى المواءمة بين البنية اللغويّة والبنية الاجتماعيّة.

وركّز ابن خلدون في نقطة مهمة، وهي اصطلاحيّة اللغة أو عرفيتها المُعبَّر عنها في التعريف السابق، بقوله: (وهو في كلِّ أُمة بحسب اصطلاحاتها)، فاللغة عنده عرف أو تقليد أو اصطلاح وليست توقيفيّة أو وراثيّة أو غريزيّة، وليست مفروضة فرضًا على أصحابها وليست من صنع جماعة معينة ولا فرد معين، وإنَّما هي اصطلاح يجري على السنن المتعارف عليها في الأُمة أو الجماعة اللغويّة المعيّنة، والاصطلاح يأتي اتفاقاً بحسب البيئة والظرف والحاجة حتى يؤدي ما اصطلح عليه أنَّهُ توظيف أمثل؛ لكي يحصل التواصل والتفاهم بين المصطلحين ؛ ولكي يؤدي هذا الاصطلاح وظيفته، والاصطلاحيّة بهذا المفهوم تعني٢٣ :

١-أنَّ اللغة اصطلاح ، أي اتفاق أشبه بالعقد الاجتماعيّ بين أفراد البيئة (الأُمة) .

٢-أنّ الاصطلاح اللغويّ قابل للتجديد، والتغيير، والتحديث، والخروج على الأنماط التقليديّة، وهو ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: " اعلم أنَّ عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليست بلغة مُضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة من لغة مُضر وعـــــــن لغة هذا الجيل العربيّ، الذي لعهدنا، وهي عن لغة مُضر أبعد " ٢٤.

إنَّ توظيف ابن خلدون للمصطلح على أنَّهُ عرفٌ، دليل واضح على أنَّ اللغة-عنده- ظاهرة اجتماعيّة، شأنها شأن أنواع السلوك الاجتماعيّ الأخرى، فكلّها تخضع للاتفاق والافتراق-بحسب الظرف والحال- كذلك نرى ابن خلدون يركّز في عامل الزمن مؤكداً بذلك سمة التنوع اللغويّ، ولاسيما في مقولته: " كلٌّ منهم – يعني أهل المغرب والأندلس والمشرق- متواصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عمّا في نفسه " ٢٥ .

٣-اللغة اصطلاح، فهي وسيلة التواصل بين أفراد المجتمع ولا يتم التواصل ولا يكون إلَّا بالوقوف على أرض مشتركة من الثقافة والرؤية بين المتكلم والسامع .

ولا يفوتنا بيان أنَّ ابن خلدون قد وضع عدة عوامل اجتماعيّة لها تأثير مباشر وغير مباشر في حال اللغة، وحدةً وتنوعًا، وقوةً وضعفًا، وغنىً وفقرًا ... وغيرها، وهي عوامل مزدوجة الأطراف، أبرزها٢٦:

السلطان والدين .

الاختلاط والعزلة .

الزمان والمكان .

المبحث الثاني / عوامل نشوء (الازدواج اللغويّ)

هناك عدة عوامل، أبرزها عاملان، هما :

أوّلًا-العوامل الاجتماعية :

تُعدُّ العوامل الاجتماعيّة وأثرها في خصائص اللغة وتطوّرها من أبرز مباحث علم اللغة الاجتماعيّ، فاللغة تتأثر أيمّا تأثر بحضارة الأُمة ونظمِها وتقاليدِها وعقائدِها واتجاهاتها العقليّة، ودرجة ثقافتها ونظرتها إلى الحياة وشؤونها الاجتماعيّة العامة ...وما إلى ذلك، فكلُّ تطوّر يحدث في ناحية من نواحي العوامل الاجتماعيّة يتردد صداهُ في أداة التعبير، لذلك تُعدُّ اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب، فطبقيّة اللغة والمراحل التي مرَّتْ بها كلُّ طبقة هي الكاشفة عن الأدوار الاجتماعيّة التي مرَّتْ بها الأُمة في مختلف مظاهر حياتها٢٧،ومن هنا فاللغة والمجتمع وجهان لعملة واحدة في علم اللغة الاجتماعي، فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، " فكلُّ لغة تعدُّ مرآة المجتمع الذي يتكلمها، وتظهر على صفحاتها ما يتسم به ذلك المجتمع من حضارة أو بداوة، ومن رقي أو انحطاط، وما يخضع له من نظم وعقائد واتجاهات فكريّة وفنيّة واقتصاديّة وغير ذلك "٢٨ لذلك ترمي الدراسات اللغويّة الاجتماعيّة الحديثة إلى دراسة العلاقة بين اللغة والظواهر الاجتماعيّة، وبيان أثر المجتمع ونظمه وتاريخه وتركيبه وبنيته...وسواها، في مختلف الظواهر اللغويّة، فضلًا عن أنَّها تشارك في فهم كثيرٍ من القضايا اللغويّة، من قبيل :

١-إنَّ دراسة الألفاظ ودلالاتها تتم في إطار اجتماعيّ حضاريّ .

٢-إنَّ التغيّر اللغويّ لا يُفسر إلاّ في ضوء الظروف الحضاريّة والاجتماعيّة.

٣-إنَّ المواقف الاجتماعيّة تؤثر في مستوى اللغة، وهذه المستويات اللغويّة تساير التغيّر اللغويّ الذي يحدث في المجتمع .

ومن الدراسات اللغوية الاجتماعيّة ما قام به(هدسن)٢٩ الذي افترض وجود ثلاثة أنواع مختلفة من المجتمعات هي:

أ-عالم من الخيال تحدده حدود طبيعية لا يمكن تخطيها، وهو انغلاق هذا المجتمع على نفسه، فلا يوفد ولا يستقبل من المجتمعات الأخرى .

ب-عالم واقعيّ غريب، مثل عالم شمالي غربي الأمازون، الذي يبلغ سكانه ١٠,٠٠٠ آلاف نسمة، معظمهم من الهنود الأصليين يُقسمون على عشرين قبيلة، تُقْسَم كلُّ قبيلةٍ على خمسِ عشائر، وكلُّ قبيلةٍ تتحدث بلغة مختلفة عن اللغات الأخرى، إذ إنَّ القبائل الأخرى لا تفهمها وفي بعض الأحيان تكون اللغة الواحدة ذات أصل لغويّ يختلف عن أصول اللغات الأُخرى وإنَّ الفرد لا يمكنه أن يتزوج من قبيلته ، وعلى الزوجة أن تتكلم بلغة زوجها .

ج- عالم واقعيّ مألوف : توصل هدسن إلى أنَّهُ ليس هناك سوى قليلٍ ممّا نستطيع أنْ نقوله عن اللغة في معزل عن السِّياق الاجتماعيّ في العالم الأوّل وأنَّ هناك كثيرًا ممّا يمكن أنْ نقوله عن اللغة في علاقتها بالمجتمع في العالمين (الثاني والثالث)، مع التفاوت في الكثرة بين المجتمعين، والنتيجة التي استخلصها هدسن هي: " لو كان علم اللغة العام يتميز من علم اللغة الاجتماعيّ بافتقاره إلى التّطوّر الاجتماعيّ فإنَّ علم اللغة العام سيصبح من ناحية موضوعه محدداً للغاية، ونستطيع أن نؤكد أنَّ دراسة اللغة من دون الرجوع إلى السِّياق الاجتماعيّ جهد لا يستحق العناء "٣٠؛ لأنَّ إهمال السِّياق الاجتماعيّ قد يؤدي بفروع علم اللغة النظريّ كلّها (الوصفيّ والتاريخيّ...وسواها) إلى القصور؛ لذلك تُعدُّ الإنجازات والاكتشافات القيّمة التي قدّمها علم اللغة العام بمعزل عن السِّياق الاجتماعيّ قاصرة، وكذلك النظريات اللغويّة التي ظهرت في العقود المنصرمة تبقى تعاني أخطاء فادحة جرّاء الموقف غير الاجتماعيّ الذي اتخذه المدافعون عنها٣١، وفي قُبالة ما للسِّياق الاجتماعيّ من تأثير في اللغة، نجد أهمية اللغة في حياة المجتمعات لا تقل شأناً ، فقد ذهب (تشيس) إلى القول: " لولا اللغة لتوقفت الحياة الإنسانيّة ولزالت الحضارات"٣٢ أما الباحث (امبرتوايكو) فقد عدَّ اللغة مؤسسة اجتماعيّة ٣٣فضلًا

عن ذلك هي الفارق الحقيقيّ والعلامة الفارقة الرئيسة التي تميِّز الإنسان من الحيوان؛ لأنَّها أكثر رقيّاً وكمالًا واختزالًا وتدوينًا وقابليّةً على الخزن والتغذية والتذكر والنسيان، فهي صورة مُظهِرة لأنشطة العقل كلها٣٤ .

ارتبطت اللغة العربية بتراث دينّي تمثّل في قرآنها المجيد، وسنة نبيّها الكريم، وتراث أدبيّ تتصاغر أمامه آداب الشعوب الأخرى، فكان للعربية صورتان : عربية فصيحة توقفت_ في كثير من مظاهرها _ عند الزمن الذي احتُجّ به، و الصورة التي رُويت بها، و أخرى عاميّة حالت بينهما أمواج التغيُّر.

لذا اللغة مرآةٌ مُظهِرة لحياة الناس وأنماط سلوكهم وأعرافهم وتقاليدهم، وقديمًا قالوا: " إذا فتحت فاك عرفناك "٣٥، أي أنَّنا ندرك من أنت، وما وضعك الاجتماعيّ، وما نوع ثقافتك، وما نوع صنعتك، بمجرد أن تبدأ بالكلام .

ثانيًا– العوامل الجغرافيّة :

أسهمت الدراسة اللهجية في نشأة الجغرافيا اللغوية التي عنيت بإعداد الأطالس اللغوية، وتوزيع اللهجات المختلفة عليها، وهذه الجغرافيا أدت بدورها إلى ظهور علم اللغة الجغرافيّ،الذي يهتم بدراسة اللغات واللهجات وتنوعاتها، وتوزيعها جغرافيًا، ودراسة ظاهرة (الازدواج اللغويّ) وتوابعه، كما أسهمت في دراسة قضايا انتشار بعض اللغات وتطورها وصراعها مع غيرها، لتشكل لغة جديدة نتيجة لذلك التداخل اللغويّ .

ونجد فكرة هذه الجغرافيا لدى اللغويين العرب القدامى، حين جمعوا اللغة من البوادي مميزين بين القبائل المقبول الأخذ منها والمرفوض، ولكن هذه الفكرة لم تأخذ عندهم الصورة العلمية المنهجية الصارمة، المكونة لما يسمى اليوم بالأطلس اللغويّ.

إنَّ أيةَ اللغةٍ ترتبطُ جغرافيًّا ببيئة معينة ومكان محدد، كما ترتبط بجماعة من البشر، وبذلك يستطيع علماء اللغة اليوم رسم خريطة العالم اللغوية، في ضوء استعمال المنهجين؛ الاجتماعيّ والجغرافيّ اللذين يعنيان بربط اللغة بالبيئة الجغرافية، ربطًا يكشف عن العلاقة اللغوية بينهما، ويعنى بذلك علم اللغة الجغرافي، الذي يوصف بأنه التطبيق العمليّ الحديث لعلم اللغة، فهو: علم يدرس اللغات واللهجات المستعملة، ويصف ظواهرها بدقة، ويوزعها على خريطة لغوية خاصة؛ لتوضيح حدودها وإعداد العديد من الإحصاءات الخاصة بها، معتمدًا على العمل الميداني في البحث، والجانب التطبيقي في التحديد، ثم المنهج الوصفي في الدراسة .

ويبدو أنَّ نشوء علوم اللغة العربية في العراق، نابعٌ من تفشي ظاهرة (الازدواج اللغويّ) فيه، ومن اختلاف أهل هذا المصر فيما بينهم ، فالتركيبة الذهنيّة العامة تتسم بقوة البصر ودقة النظر في مسائل الدين والدنيا، وما ذلك الاختلاف إلّا استجابة لمتطلبات العقل الجمعيّ؛ لأنَّ المعروف عن أهل الكوفة أنَّهم شتات من أقوام مختلفة وألسن متنوعة تجمعت في معسكر الكوفة بخلاف أهل الحجاز، إذ فرق ابن أبي الحديد بين هذين المصرين بقوله : " إنّ هؤلاء من أهل العراق وساكني الكوفة، وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة، وأهل هذا الإقليم أهل بصرٍ وتدقيق ونظر، وبحث عن الآراء والعقائد، وشبهة معترضة في المذاهب، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة من تشبه بالأكاسرة، وليس طينة أهل الحجاز هذه الطينة، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفية وخشونة الطبع، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف، فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل، ولا موقع شبهة ولا مبتدع نحلة " ٣٦. فمن الطبيعيّ أن تنتشر ظاهرة (التداخل اللغويّ) في العراق لتعدد قبائل في الكوفة ووجود المذاهب الجدلية .

ليست هناك سمات في البنية اللغوية من النواحي الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلالية تفرض أنَّ أحد المستويات هي الفصحى والآخر هو العامية، فكلاهما ينطبق عليه تعريف اللغة بوصفها نظامًا من الرموز الصوتية، ولكن أبناء الجماعة اللغوية يقفون من الفصحى موقفًا غير موقفهم من العامية. فالفصحى تحترم اجتماعيًّا وتحترم قواعدها عند المثقفين، كما تدعم النماذج الأدبية والكتب الثقافية والعلمية مكانة الفصحى. ويؤدي هذا في حالات كثيرة إلى أن جعل استعمالها موحدًا –أو يكاد يكون موحدًا– عند كلِّ أبنائها، حتى وإن كانوا منفصلين جغرافيًّا واجتماعيًّا عن بعضهم البعض، فيظل الاختلاف الإقليميّ في استخدام الفصحى داخل العرف النحويّ والمعجميّ للغة، ولكن العامية تعدُّ في رأي مستعمليها غير مقننة من الناحية النحوية، على الرغم من أنَّ لكلِّ لهجة قوانينها الخاصة بها. ولا يقف أبناء الجماعة اللغوية من العامية موقف الاحترام، لذا لا تستعمل العامية في الكتابة الرسمية، ولا في المجالات الثقافية والعلمية تاركة ذلك للغة الفصحى.

وهناك عوامل أخرى أدت بمجموعها إلى شيوع ظاهرة(الازدواج اللغويّ)، منها ما هو نفسيّ، ومنها ما يتعلق بالحروب والسياسات، ومنها ما يتعلق بالجنس والسن.

انقسم دارسو اللغة العربية أمام هذه المعضلة، فكانوا أزواجًا ثلاثة:

١– فريق يرى أن نستبدل العامية بالفصحى. وهذا الرأي غفل عن أمور، منها :

ـ وجوب الإبقاء على الصلة بين الخلف و السلف، والانتفاع بتراثهم .

ـ إنَّ اللغة هي من أقوى الروابط التي تربط بين الشعوب العربية و الإسلامية.

ـ إنَّ العامية العربية غير ثابتة في نفسها، بل هناك لهجات متعددة في البلد الواحد، فعلى أيِّ عامّية نصطلح.

ولمّا كانت تلك دعوة صريحة للهدم ألبسوها لباس العلم، وهو ما يعرف بـ(علم اللغة العامّ) الذي يدعو إلى دراسة اللغة في ذاتها (المنطوقة)، ومن أجل ذاتها، فكانت مادّة دراستهم اللغة العاميّة.

٢– و فريق حمل لواء دعوة مثاليّة مطالبًا العودة إلى اللغة العربية الفصحى، وأنْ يُحشد لذلك كلُّ الوسائل الإعلاميّة والتعليميّة، بل ربّما وضع برنامجًا لذلك يرى أنّه يفضي إلى ما يرمي إليه. ألا إنّ تلك أمنية لن تتحقّق حتى يؤوب القارضان كلاهما ، و سيظل متمنُّوها في سنتهم حتى يرتطموا بالسنن اللغوية التي تفرض الازدواج اللغويّ فرضًا .

٣– و رأى فريق ثالث أنَّ الحفاظ على اللغة الفصحى المكتوبة واجب ديني، و أنّ الاعتراف بالازدواج اللغويّ تفكير منطقيّ، و أنَّ التواضع على لغة منطوقة تحمل قدرًا كبيرًا غيرَ مثقل من الفصحى، وتفي بلغة الخطاب اليوميّ بما تتصف به من يسر وسهولة واجب لغويّ .

إنَّ هذا الفريق يزعم أن ليس في ما يقوله دعوة إلى العاميّة، أو نبذٌ للفصحى، ولكنّها تنطلق من إيمان بحقيقة الازدواج اللغويّ، فإنْ كان لا بُدَّ واقعًا فلا أقلّ من لغـــــة قريبة من الفصحى، وإنّ من الملامح التي يمكن طرحها ما يأتي :

ـ في الجانب الصوتيّ أحسب أنّ الحفاظ على أصوات اللغة الفصحى أمر يسير ؛ إذ إنّ انحراف العامّة في أصوات اللغة لم يصب إلا قدرا يسيرا منها .

ـ في الجانب البنيويّ فلعلّ من الواجب التخلّص من كلّ الأبنية التي لم يأت عليها إلا شواذّ من الألفاظ، والميل إلى الأبنية الخفيفة على اللسان، على أنَّ في اللهجات العاميّة أبنية أستحدثها الموروث اللغويّ، وأخرى فصيحة توسعت العاميّة في بنائها متجاوزة ما وضعه الصرفيون من ضوابط، و ثالثة ترتبط من الفصحى بسبب، وإنْ لحقها التحريف ما يمكن قبوله .

_ في جانب التركيبيّ، فلا شكّ أنّ الإعراب الذي هو أهمّ ظواهره أشدّ تفلتا من الإبل في عقلها ، وأحسب أنّ الدعوة للمحافظة عليه زعم لا يستند إلا على جدار من الوهم ، فإنْ كان لابد فالاقتصار على ما لا يتأتّى المعنى إلا به، أمّا ما تدلّ عليه القرائن، ويؤديه التقديم والتأخير فلا ضير في تجاهله، ذلك أنّ الإعراب أمر عقليّ يعيق المتكلّم فيتلجلج اللسان، والفكر إنْ لم يكن طبعا، يقول ابن خلدون عن المجتمعات البدويّة في عهده: " إننا نجد في هذه اللغة في بيان المقاصد، والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المُضَرِيّ، ولم يُفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير، وبقرائنَ تدلّ على خصوصيات المقاصد ...، ولا تلتفتنّ في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ...، و لعلَّنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربيّ لهذا العهد، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابيّة في دلالتهـــــــــــا بأمور أخرى موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصّها "٣٧ .

_ في الجانب الصوريّ التركيبيّ للجمل، فينبغي الميل إلى الأساليب الواضحة التي يعبّر بها المتكلم عن مقاصده بأقرب طريق، بعيدًا عن تلك الأساليب الشاذّة، والمعقّدة، ولعل أوّل ما يتبادر إلى الذهن طرحه كثيرًا من أساليب التنازع، والاشتغال، والأساليب التي يفصل فيها بين متلازمين مما أجازه النحاة في السعة، كبعض صور الفصل بين المضاف والمضاف إليه، والجنوح في الأعمّ الأغلب إلى وضع كلّ مفردة في مكانها بعيدًا عن التقديم والتأخير الذي لا يعين على فهمه إلا الإعراب، والمعرفة بأسراره الدقيقة، وحذف ما يمكن أن تؤديه القرائن، أو طريقة الأداء كهمزة الاستفهام مثلًا، ثّم إنَّ كثيرًا ممّا قصره علماؤنا المتقدمون على السماع مما استعملته اللغة العاميّة اليوم يمكن توسيع دائرته فكما يقال: مررت زيدًا، يقال مثلًا: سافرت الرياض.

_ في الجانب الدلاليّ؛ فإنَّ التسارع الحضاريّ، والاتّصال الوثيق بالأمم الأخرى، والاطّلاع على ثقافاتهم يحتاج معه إلى ألفاظ تفي بالقدرة على التعبير، وإلا كان الإنسان حيوانًا أعجمَ ، وإذا كانت العامّية ستصلِح هذا النقص فيها،أنّها لن تبالي أوجدت في الفصيح بغيتها أم ركنت إلى المولّد، أو المعرب، أو الدخيل؟ وعلى كلٍّ فإنَّ في اللغة المنطوقة ألفاظًا وحشيّةً غريبة، يجب الترفع عنها في الاستعمال، وتلك التي تجاوزها التطور الصوتيّ مما يثقل النطق به، كما يمكن الاعتماد على الألفاظ التي ما زالت مستعملة في العامية مما بقي على فصاحته في لفظه ومعناه، أو في لفظه دون معناه مما جرت عليه سنن التغيير بتخصيص الدلالة، أو تعميمها، أو نحو ذلك مما يبقي الصلة بينه وبين الفصيح قائمة ولو على وجه بعيد، أمّا المولّد والمعرّب والدخيل فإن كان في الفصيح ما يؤدي معناه فيجب إحياؤه، والرجوع إليه، وإلّا فلا ضيرَ في استعماله كما كان الحال في اللغة الفصحى بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة٣٨.

المبحث الثالث / أشكال الازدواج اللغويّ وأثاره :

أولًا–أشكال الازدواج اللغويّ :

توجد أشكال مختلفة من الازدواج اللغويّ، منها :

١_ (اللغة الرسمية) Official Language هي اللغة المستخدمة في المجالات الرسمية في الدولة. وتنصص الدساتير – غالبًا– على تحديد اللغة الرسمية في كلّ دولة.

٢_ (اللغة الوطنية) National Languge كما هي الحال في كثير من دول العالم، وقد تكون امتدادًا للغة الرسمية في عهد الاستعمار، وهذه حال في كثير من الدول الجديدة في أفريقيا وآسيا. فاللغة الرسمية في موريتانيا هي اللغة الفرنسية،

وليست الفرنسية لغة أبناء موريتانيا فهم عرب وبربر، وما تزال اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية في عدد من الدول الإفريقية. وهناك دول اعترفت لظروف تاريخية بتعدد اللغات الرسمية، فالفرنسية والفلمنكية لغتان رسميتان في بلجيكا، والانجليزية والأفريكانز Afrikaans لغتان رسميتان في اتحاد جنوب إفريقيا، والإنجليزية والفرنسية لغتان رسميتان في كندا. والألمانية والفرنسية والإيطالية هي اللغات الرسمية في سويسرا .

٣- (لغة التعليم) Language Educational : وهي التي تستخدم في المجالات التعليمية والثقافية والتقنية، وتسمى أيضًا لغة الثقافة Cultural Language أو اللغة التقنية Technical Language .

وكثيرًا ما تكون اللغة الرسمية لغة التعامل في هذه المجالات، ولكن عددًا كبيرًا من الجماعات اللغوية في العالم المعاصر تتعامل في المجالات التقنية بلغة تختلف عن اللغة الرسمية التي نصَّ عليها الدستور. فتدريس العلوم والهندسة والطب يتم في أكثر جامعات الدول العربية باللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية مع أن دساتير هذه الدول تنصُّ على أنَّ اللغة الرسمية هي اللغة العربية.

وهناك لغات تستعمل في مجالات خاصة من غير أن تكون اللغة الوطنية أو اللغة الرسمية أو لغة التعليم، فـ(لغة الدين) Religious Language أو(لغة الشعائر الدينية) Language Liturgical هي اللغة العربية في كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ. و(اللغة اللاتينية) هي لغة الطقوس الدينية عند الكاثوليك واللغة العبرية هي لغة الدين عند اليهود. ويؤدي قصر استعمال لغة من اللغات على المجال الدينيّ إلى اهتمام رجال الدين –في المقام الأول– بهذه اللغة ليقرؤوا الكتب المؤلفة بها، ويؤلفوا بها ما يريدون من كتب دينية .

وإلى جانب هذا فهناك لغات توصف كلٌّ منها بأنها لغة جماعة langugae Group ويقتصر استعمالها على مجموعة حضارية أو أثنية داخل الدولة، فالمهرية في منطقة من اليمن الجنوبية وعند المهاجرين منهم إلى الكويت هي لغة مجموعة أثنية Ethnic Language وهذا كذلك شأن النوبية في مصر. والكردية في العراق والبربرية في المغرب .

وتعدُّ معرفة لغة المجموعة الحضارية أو الأثينية في أكثر الأحوال معيارًا لبيان انتماء الفرد لهذه المجموعة، ويؤدي ارتباط اللغة بمجموعة بشرية بعينها إلى عدم استعمالها عند غير أبنائها للأغراض العامة، لاسيما إذا كانت جماعة أبناء هذه اللغة منفصلة عن باقي أبناء البلاد بحواجز جغرافية أو حضارية أو دينية أو طبقية. وفي أكثر هذه الحالات يتعامل أبناء هذه اللغة مع الآخرين بلغة أخرى تصبح بمنزلة لغتهم الثانية .

إذا كان التعاون بين البشر ضرورة اجتماعية وحضارية فإنّ التعامل بين الأفراد المنتمين إلى جماعات لغوية مختلفة يشكل في أكثر الأحوال صعوبة كبيرة. ويطلق على اللغة التي تتعامل بها جماعات تختلف لغاتها الأم اسم لغة التعامل franca Lingua وهناك عدة لغات تعامل في العالم الحديث، ومن أمثلة لغات التعامل استعمال العربية بين القبائل غير العربية في السودان وإريتريا .

إنَّ العالم المعاصر به أكثر من ثلاثة آلاف لغة، ولكن أكثر هذه اللغات يقتصر استعمالها على أعداد محدودة من البشر. وهناك إحدى عشرة لغة من هذه اللغات يتحدث بها أكثر من خمسين مليونًا، هي: الصينية والإنجليزية والهندية، الأردية، والإسبانية، والروسية، والعربية، والبرتغالية، واليابانية، والبنغالية، والألمانية، والفرنسية ولكن ليست كل هذه اللغات مما يمكن وصفها بأنها من اللغات الدولية International Language فاللغة الدولية لا تتحدد مكانتها بانتشارها وعدد

أبنائها فحسب، بل تتحدد مكانتها بأهميتها الحضارية وإقبال غير أبنائها على تعلمها والتعامل بها، فاللغة لا تعيش إلا في جماعة لغوية، ولا ترقى إلا بالإنسان.

ثانيًا – آثار الازدواج اللغويّ :

من البديهي على دولة تحكم بلدًا معنيًا بظاهرة الازدواج اللغويّ فتغفل عن هذه الوضعية اللّسانية أو تتغافل عنها ذلك أنّ التعدد اللغوي من أهمّ العوامل بعد التعدد العقدي المؤدّي إلى التّفكك الاجتماعي يشهد على ذلك الحرب التي فجّرت الجمهوريّة اليوغسلافية سنة ١٩٩٢ إلى دويلات مستقلّة تقوم على أساس ديني أو عرقي، وليس ببعيد عنّا أحداث الجزائر في عام ٢٠٠١ بفعل الحركة البربرية التي طالبت بالحكم الذّاتي لمنطقة القبائل، ومتاعب إسبانيا مع الباسك ، و تركيا و العراق مع الأكراد. ومن آثاره المهمة ما يأتي :

١ – تهوين الروابط الاجتماعية :

تعدُّ اللغة منطق الأمة و الحافظ لثقافتها و هويّتها، وهي التي تدّخر في كلماتها أخلاق أهلها وعاداتهم و نشاطهم الفكريّ والأدبيّ، إنَّ كلَّ كلمة من كلمات اللغة هي لحم الوطن و البشر ودمهما وروحهما، وهي بعد ذلك تؤثّر في السلوك الإنسانيّ للمجتمع، و تؤثّر في الذّهن والعقل و الشّعور ٣٩ . فإذا وجد مجتمع في وضعية ازدواج لغوي فلا يكون أفراده في الغالب عل قلب واحد لأن وضعيّة التّفكيك تحلّ محلّ وضعية التّآلف .

٢ – الازدواج اللغويّ مُكلّفٌ اقتصاديًا :

يتطلب الازدواج اعتمادًا ماليًا كبيرًا لتلقين الطلبة اللغة الأصلية الأولى مع اللغة الأخرى، فضلًا عن إعداد البرامج و الكتب المدرسية في المراحل الأولى فقط فما بالك بالمراحل التّعليمية الأخرى ولو أن ذلك أنفق في سبيل تمكين المتعلّمين من لغتهم الأولى ولو في بدايات تعليمهم لتحقّقت نتائج أفضل.

٣ – الإصابة بالعسر اللغويّ :

فلا يتمكّن الفرد من الاسترسال في الكلام، ويحصل له اضطراب، وقطع للجمل، والانتقال من كلام إلى آخر قبل إتمام الأول، والمبالغة في الحشو، والتوقّف المخل بالكلام في انتظار الألفاظ المناسبة الشيء الذي يمكن ملاحظته من خلال استجوابات صحفية، و حوارات حتى في الأوساط الجامعيّة.

وخلاصة القول أنَّهُ يوجد في أكثر الجماعات اللغوية في العالم أكثر من مستوى لغويٍّ واحدٍ، يشارك الفرد في كلِّ مستوى منها على وفق المواقف الكلامية التي يعيشها، فالمواقف الكلامية في مجال الحياة اليومية تختلف عنها في المجالات الثقافية أو مجالات السياسة، وقد يكون هذا الاختلاف في إطار اللغة الواحدة كما هي حال المثقفين من أبناء اللغة الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية في تعاملهم بلغاتهم. وقد يكون الاختلاف أكثر من ذلك، في إطار اللغة الواحدة عندما تستخدم اللهجة العامية والفصحى جنبًا إلى جنب .

الهوامش

١. [١] – ينظر : حرب اللغات ، لويس جان كالفي / ٧٨ ، ترجمة : حسن حمزة ، المنظمة العربية للترجمة ، ط١ ، ٢٠٠٨ .

٢. [١] – علم اللغة الاجتماعيّ، د.هدسن، ترجمة: د.محمود عبد الغني عياد، مراجعة: د.عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١،ص/٩٧ .

٣. [١] – ينظر: الازدواجية اللغويّة في المغرب، د.محمد نافع العشيريّ، محاضرات ألقيت بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة،بنمسيك، يوم الخميس/١٢يونيو/٢٠٨٨م، منشورة على شبكة الانترنيت ،ص/٣ .

٤. [١] – ينظر:نفسه .

٥. [١] – علم اللغة الاجتماعيّ، د. هدسن، ص/٦١ .

٦. [١] – ينظر: الازدواجية اللغويّة في المغرب، د.محمد نافع العشيريّ، ص/٦ .

٧. [١] – ينظر: علم اللغة الاجتماعيّ، د. هدسن، ص/٩٧ .

٨. [١] – الازدواجية اللغويّة في المغرب، د.محمد نافع العشيريّ، محاضرات ألقيت بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، بنمسيك، يوم الخميس/١٢يونيو/٢٠٨٨م، منشورة على شبكة الانترنيت،ص/٥ .

٩. [١] – ينظر : التعدد اللغويّ وانعكاساته على النسيج الاجتماعيّ، د.محمد الأوراغيّ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية_الرباط،مطبعة النجاح الجديدة –البيضاء،ط١ ،ص/٤٨_٤٩ .

١٠. [١]– ينظر: التعدد اللغويّ وانعكاساته على النسيج الاجتماعيّ، د.محمد الأوراغيّ، ص/١١ .

١١. [١]– ينظر: التعدد اللغويّ وانعكاساته على النسيج الاجتماعيّ، د.محمد الأوراغيّ، ص/٤٨ .

١٢. [١] – نهج البلاغة، خطبة/٩٠ ، ص/ ١٢٤ .

١٣. [١] – سورة القصص ، آية :٧٦ .

١٤. [١] – ينظر: مختار الصحاح ، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازيّ (٦٦٦هـ) ، مادة (ناء) ، تحقيق وضبط : حمزة فتح الله (ت ١٣٣٦هـ) دار البصائر ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٧م .

١٥. [١] – نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب(ع) ، ضبط نصّه: د.صبحي الصالح ، دار الحديث للطباعة والنشر ، قم ، ط٣،(١٤٢٦ق-١٣٨٤ش)، كتاب / ٦٥ ، ص/٤٥٧ .

١٦. [١] – سورة يوسف ، آية : ٣١ .

١٧. [١] – نهج البلاغة ، خطبة/١٨٠ ، ص/٢٥٩ .

١٨. [١] – لم أجد قائله في كتب الأدب .

١٩. [١] – ينظر: اللغة والمجتمع ، م.م. جاكسون ، ترجمة :د. تمام حسان ، عالم الكتب القاهرة ، ط٢٠٠٣،١ م /٢٣ .

٢٠. [١] – البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب الجاحظ(٢٥٥هـ) ، تحقيق: د.حسن السندوبيّ ،المطبعة التجارية الكبرى ،ط١ ،١٩٢٦م ، ١/ ٩٦.

٢١. [١] – نفسه ١/ ٧٢ .

٢٢. [١]– نفسه .

٢٣. [١] – ينظر :نفسه ، ج/٣ ، ص/١٢٦٤ .

٢٤. [١] – المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، بيروت ، دار القلم ، ط١ ، ١٩٧٨م ١٣٨٤/٣ .

٢٥. [١] – نفسه ١٣٨٤/٣.

٢٦. [١] – ينظر: المقدمة ٩٠٠/١-٩٠٤ .

٢٧. [١] – ينظر: اللغة والمجتمع، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة (١٩٧١)، ص/١٠.

٢٨. [١] – مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ، د.نعمة رحيم العزاويّ ، منشورات المجمع العلميّ العراقيّ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م ، ص/٤٩.

٢٩. [١] – ينظر: علم اللغة الاجتماعيّ ، د.هدسن /٤٢-٤٣.

٣٠. [١] . علم اللغة الاجتماعيّ ، د.هدسن/٤٢

٣١. [١] -ينظر : نفسه /٤٣.

٣٢. [١] – Chase .stuart .power of words . harcourt brace and world. Inc.NEWYORK,1954,p.6-3

٣٣. [١] – نفسه .

٣٤. [١] – ينظر: المنحى الاجتماعي في لسان العرب، محمد صنكور، رسالة ماجستير ، كلية الآداب،الجامعة المستنصريّة ، غير منشورة، ص/٤١.

٣٥. [١] – مثل عربيّ قديم لم أجده في مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانيّ النيسابوريّ (ت / ٥١٨هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ب.ت .

٣٦. [١] – شرح نهج البلاغة ، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنيّ الشهير بابن أبي الحديد المعتزليّ (٦٥٦هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء التراث العربيّ، ج/٧ ، ص / ٣٨ .

٣٧. [١] – المقدمة، ١٣٨٥/٣.

٣٨. [١] – ينظر : اللغة المنطوقة و اللغة المكتوبة ، د.عبد الله اللحيانيّ، شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية، شبكة الانترنيت .

٣٩. [١] – ينظر: مقدمة تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهريّ ت /٤٠٠هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة، ١٩٥٦م .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- الازدواجية اللغويّة في المغرب، د.محمد نافع العشيريّ، محاضرات ألقيت بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة ، يوم الخميس/ ١٢يونيو /٢٠٨٨م ، منشورة على شبكة الانترنيت .
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب الجاحظ(٢٥٥هـ) ، تحقيق: د.حسن السندوبيّ ،المطبعة التجارية الكبرى ،ط١ ،١٩٢٦م .
- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهريّ ت /٤٠٠هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة، ١٩٥٦م .
- التعدد اللغويّ وانعكاساته على النسيج الاجتماعيّ، د.محمد الأوراغيّ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية_الرباط،مطبعة النجاح الجديدة –البيضاء،ط١ .
- حرب اللغات ، لويس جان كالفي، ترجمة : حسن حمزة ، المنظمة العربية للترجمة ، ط١ ، ٢٠٠٨ .
- شرح نهج البلاغة ، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنيّ الشهير بابن أبي الحديد المعتزليّ (٦٥٦هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء التراث العربيّ .
- علم اللغة الاجتماعيّ، د.هدسن، ترجمة: د.محمود عبد الغني عياد، مراجعة: د.عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١.
- اللغة المنطوقة و اللغة المكتوبة ، د.عبد الله اللحيانيّ، شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية، شبكة الانترنيت .
- اللغة والمجتمع ، م.م. جاكسون ، ترجمة :د. تمام حسان ، عالم الكتب القاهرة، ط٢٠٠٣،١م .
- اللغة والمجتمع، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة (١٩٧١) .
- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانيّ النيسابوريّ (ت / ٥١٨هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ب.ت .
- مختار الصحاح ، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازيّ (٦٦٦هـ) ، مادة (ناء) ، تحقيق وضبط : حمزة فتح الله (ت ١٣٣٦هـ) دار البصائر ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٧م .

- المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، بيروت ، دار القلم ، ط١ ، ١٩٧٨م
- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ، د.نعمة رحيم العزاويّ ، منشورات المجمع العلميّ العراقيّ ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م ، ص/٤٩.
- المنحى الاجتماعي في لسان العرب، محمد صنكور، رسالة ماجستير ، كلية الآداب،الجامعة المستنصريّة ، غير منشورة .
- نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب(ع) ، ضبط نصّه: د.صبحي الصالح ، دار الحديث للطباعة والنشر ، قم ، ط٣،(١٤٢٦ق-١٣٨٤ش) .
- Chase .stuart .power of words .harcourt brace and world. Inc.NEWYORK,1954

Search summary

Phenomenon (double linguistic) and their impact on the fabric Finder

Dr. Neema d. Farhan al-Tai

Faculty of education/Ibn Rushd _ Baghdad University

For the development of the intellectual implications on the social fabric, especially in the field of linguistics, including his contribution in the detection of many of the phenomena shared between language and society, and the transition studies linguistic in discussed in the language itself to new areas, has opened new horizons for the discovery of phenomena lingual emergency in the language, has The development of linguistic research to the development of a number of science related to the phenomenon of language, and although some of the control of science on each other's philosophy and approach, have remained Linguistics independence, preserve its assets, other than that occur epistemological break with it. It was the product of this development the emergence of Linguistics Social, which is a branch of an important branch of linguistics year or the science of linguistics, he is interested in studying the language in its relationship to society; as it regulates all aspects of the structure of language and methods of their use, that are related to their social and cultural rights, and is not intended in this science that the composition or a combination of scientific language and assembly, or that a combination of both or a gathering of their cases and Msaúlhma, but it is who is looking for how they interact with the language with the community, looking at changes in the structure of language in response to the functions of the various social, with an indication of these functions and identify .

That all the phenomena of language social occur necessarily change language in the language of the community; because this change of language (development) is a figment of the change in the traditions and social norms, Vmadar language development in a society is the acceptance of the community and traded him, so is social factors and their impact on the properties of language and evolution of the leading Social Investigation linguistics, language and society are two sides of one coin in social linguistics, both affects and is affected by the other.

Hence the importance of this research, which tried to researcher disclosure of the contents of an important phenomenon of the phenomena of this science, preceded it by many researchers, he wanted to increase in the architecture of the new brick, came to his research marked by b (the phenomenon of duplication of language and its impact on the social fabric), divided him to three sections; the first section of Musoma (b definition to the phenomenon of double language), divided into two parts; the first of which was devoted to (for dual language concept), while allocated the other's (for dual language in blogs ancient Arabic) The second research; Fajss for (double the emergence of linguistic factors), and also of two types, the first of which was devoted to (social factors), while the other was devoted to (geographical factors), and noted researcher for the rest of the factors overall to study them is implicit in the sections mentioned above. The third section marked by (b duplication of linguistic forms and its effects), and also of two types; the first of which was devoted to (linguistic forms of duplication), while the other was devoted to (the effects of double language.) And research concluded with a list of sources and references.

Praise be to Allah, Lord of the Worlds